المتنزهات الطبيعية
في الشعر العباسي

د٠ خالد بن فهد البهلال(*)

المقدمة :

تزخر بلاد العرب بالصحاري الشاسعة، المليئة بالكثبان والهضاب والنجود والروابي، وربما تخللتها بعض المراعي الفسيحة، والأنهار الجارية، والأودية الظليلة، والرياض الخضرة، والجبال النضرة، والواحات الوارفة، فالطبيعة كيان رحب يمتاز بتنوع لا حدود لاتساعه وتعدد مكوناته، وهذا يطلق لسان الشاعر وخياله؛ ليصوغ أجمل الصور، ويبدع أسمى المعاني، ويعبر عن قدرة البارئ الجليل الذي خلق كل شيء فأحسن تصويره، ومن مثل الشاعر يحس بالجمال ويتذوقه، ويعبر عنه بأبلغ عبارة، وأجمل صورة، ويسمو التصوير الشعري ويبلغ غايته إذا امتلك الشاعر إلى قدرته البيانية خيالاً نافذاً، وخلفية ثقافية واسعة، وإن الشاعر العباسي قد استساغ معطيات الحضارة الجديدة، واستقر في نفسه كغيره من الشعراء الاهتمام بالمتنزهات، والتغني بها.

وهذا البحث " **المتنزهات الطبيعية في الشعر العباسي** " محاولة لمعرفة أثر المتنزهات الطبيعية في وجدان الإنسان، وخاصة الشاعر العباسي، وتلمس أثرها في شعره، وتجلية للفكرة المعبر عنها، وذلك من خلال بعض الشواهد الشعرية من العصر العباسي.

أهداف البحث:

تبيين أهمية المتنزهات في حاضرة الإسلام زمن العباسيين، إذ إن ذكر المتنزهات في الشعر له دلالة نفسية، وقيمة موضوعية لا يمكن تجاوزها، بل

(*) أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية كلية التربية – جامعة الأمير سطام – الخرج.

إنه سبب لتحليل أبعاد النص ودوافعه، وتبيين أنه يفيد في تأكيد حالة التجاذب بين النفس والبيئة، حيث يجد الشاعر في المتنزهات أنسه وبهجة نفسه بعيداً من واقع مؤلم وحياة مضنية، وتبيين أثر المتنزهات الطبيعية في وجدان الشاعر العباسي ومشاعر، مع عرض نماذج تطبيقية من شعر شعراء العصر العباسي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث بجدته ولطافته، إذ لم أجد من تناول هذا النوع من الموضعات اللطيفة لدى الشعراء العباسيين، فهو يبرز عناية الشعراء العباسيين بالمتنزهات، ويعرِّف بها، ويستدعي الشواهد الداعمة لها من شعر ذلك العصر.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتمثل مشكلة البحث في تتبع الشواهد الشعرية التي تخدم البحث وأبوابه؛ إذا يحتاج طول تأمل، وسبراً لأشعار الشعراء، مع ندرة شديدة تكاد تصل إلى انعدام البحوث التطبيقية التي تناولت شعر شعراء العصر العباسي بالذات؛ إذ إن هناك بحوثاً تناولت أثر الطبيعة في شعر شعراء العصر الجاهلي والعصر المملوكي الأول والثاني.

الدراسات السابقة:

الكتب التي تناولت جانب المتنزهات الطبيعية نادرة، لكن هناك بحوث تناولت " وصف الطبيعة في شعر العصر الجاهلي "، و"وصف الطبيعة في شعر العصر المملوكي الأول"، و "وصف الطبيعة في شعر العصر المملوكي الثاني"، وإن وجد أحدٌ قد اهتم بالمتنزهات الطبيعية في الشعر العباسي فإني لم أقف على جهده، ولم أعثر على دراسة مستقلة في ذلك.

إجراءات البحث ومنهجه:

تم استخدام المنهج الوصفي في تحرير مصطلح التنزه، كما تم استخدام المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي من خلال استقراء شعر بعض شعراء العصر العباسي للوصول إلى الشواهد المساندة.

حدود البحث:

التزم البحث توضيح مفهوم التنزه وأهميته، وبيان أهم عناصر المتنزهات الطبيعة التي يشملها العنوان، مع محاولة تطبيق هذه الأنواع على شيء من شعر شعراء العصر العباسي.

خطة الدراسة:

تضمنت خطة البحث هذه المقدمة، وتمهيداً تناول المدلول اللغوي للتنزه ومفهومه العام، وذكر أهم عناصر المتنزهات الطبيعة: المناظر المائية الجميلة، والصحراء، والجبال، والرياض، والوديان، والكثبان والروابي، ثم الخاتمة، وتشمل أهم التوصيات، ثم مكتبة المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

* *

التمهيد

"التَّنَزُّهُ: التباعد، والاسم النُّزْهةُ، ومكانٌ نَزِهٌ ونَزِيهٌ، وقد نَزِهَ نَزَاهَةً ونَزَاهِيةً، وقد نَزِهَتِ الأَرضُ، بالكسر وأَرضٌ نَزْهَةٌ ونَزِهَةٌ بعيدة عَذْبَةٌ نائية من الأَنْداءِ والمياهِ والغَمَقِ. الجوهري: وخرجنا نتَنَزَّهُ في الرِّياضِ، وأَصله من البُعْدِ، وقد نَزِهَتِ الأَرضُ، بالكسر. ويقال: ظَلْنا مُتَنَزِّهِينَ إذا تباعدوا عن المياه..ابن سيده: وتنزَّهَ الإنسانُ خرج إلى الأَرض النَّزِهَة، قال: والعامة يضعون الشيء في غير موضعه ويَغْلَطُونَ فيقولون: خرجنا نتَنَزَّهُ إذا خرجوا إلى البساتين فيجعلون التَّنزُّهَ الخروجَ إلى البساتين والخُضَر والرِّياض، وإنما التَّنزُّهُ التباعدُ عن الأَرياف والمياه حيث لا يكون ماءٌ ولا نَدًى ولا جَمْعُ ناسٍ[1].. وإنما قيل للفلاة التي نأَتْ عن الرِّيفِ والمياه نزِيهةٌ لبعدها عن غَمَقِ المياه، وذِبّانِ القُرى، ووَمَدِ البحار وفساد الهواء" [2].

قال أبوحيان: "وأفضل النزهة وجه سماء، وصفوة هواء، وغدير ماء، وخضرة كلاء، وسعة فضاء[3]، فالمتنزهات: هي كل مكان يشعرنا بالدفء والأنس؛ حتى نألفه ونرتبط به، ويترك بصماته الواضحة على ذواتنا، بحيث

---

(١) وقد خالف في هذا ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٣٨، يقول: " وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الناس خرجنا ننتزَّه – إذا خرجوا إلى البساتين – إلى الغَلَطِ، وقال: إنما التنزه التباعد عن المياه والريف، ومنه يقال: فلان يتنزه على الأقذار أي: يُباعد نفسه عنها، وفلان نزيهٌ كريمٌ إذا كان بعيداً عن اللؤم، وليس هذا عندي خطأ؛ لأن البساتين في كل مصر وفي كل بلد إنما تكون خارج المصر؛ فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه، أي: يتباعد عن المنازل والبيوت، ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت النزهة القعود في الخضَرِ والجِنان.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة (نزه).

(٣) البصائر والذخائر، أبوحيان التوحيدي، ١٨٥/٤.

لا يمكن أن تمحى تلك البصمات؛ لشدة رسوخها، وتمكنها في أذهاننا وهي أيضاً الموضع الذي تأنسه النفوس، وتركن إليه، وتجد راحتها ورضاها في رباه، وتجد فيه الجمال، فبقدر تأثير المتنزهات في وجدان الشاعر يكون ذكره لمظاهرها الطبيعية، ووصفه لمغانيها وجمالياتها، وهو انعكاس لتأثيرها في وجدانه الذي "يتأثر بمظاهر الطبيعة تأثراً عفوياً، ويقع ذلك في عتمة ضميره، حتى إذا عرض للوصف، وتقابلت وجوه المظاهر بعضاً ببعض تتولد الصورة"(١).

والطبيعية كيان رحب يمتاز بتنوع غير محدود لاتساعه وتعدد مكوناته مما يعطي الشعراء حرية الانتقاء من عناصره الجميلة، فله مظاهر جمالية، وفيه طاقات إيحائية، وله دلالات رمزية، وهذا الكيان قد تجاوز محيطه الجغرافي، ليتأثر بمحيطه الخارجي، وأشرف على عوالم خارجة عنه، وارتبط بهذه العوالم تأثيرًا وتأثرًا، فآفاقه الواسعة، ومناظره المتنوعة تعطي العين فرصة قنص المشاهد المعبرة والمؤثرة من الواقع المادي المنظور.

وهذا يتشارك فيه كل أحد غير أنه ينعكس على وجدان الشاعر خاصة في لحظة إبداع، فيصنع لوحة شعرية متأثرةً بالعوامل الخارجية التي تمثلها عناصر الطبيعة، والعوامل الذاتية التي يمثلها الإحساس بالجمال والقدرة على إعمال الخيال، فتتضافر مجتمعةً لتؤطر عملاً فنياً في لوحة مشرقة.

وإن الشاعر العباسي قد استساغ معطيات الحضارة الجديدة، وتمثل معطياتها، واستقر في نفسه كغيره من الشعراء الاهتمام بالمتنزهات، والتغني بها.

ومن أهم عناصر المتنزهات الطبيعة: المناظر المائية الجميلة، والصحراء، والجبال، والرياض، والوديان، والكثبان والروابي، وسنتوقف مع كل عنصر بإيجاز:

---

(١) فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، إيليا الحاوي، ص:١٤١.

١-الأنهار:

من فطرة الإنسان وطبيعته محبة المياه، يقول المولى جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠)، فقد لقي منظر المياه الجارية أو المستقرة اهتمامًا كبيرًا لدى الشعراء العباسيين، فوصفوا الأنهار والجداول والأودية، وانعكاس القمر على الماء، يقول الثعالبي: «وقد أكثروا في وصف القمر على الماء.. وأحسن ما سمعت فيه -على كثرته- قول القاضي التنوخي:

أحسن بدجلة والدجى متصوب والبدر في أفق السماء مغرب

فكأنها فيه بساط أزرق وكأنه فيها طراز مذهب»[١]

فجادوا بما أوتوا من قدرة فنية، وبلاغة شعرية، وثقافية معرفية، لرسم لوحات من الإبداع الشعري الأخاذ، حتى كأنك ترى المتنزهات الطبيعة مرتديةً أحسن حللها، و «الأنهار من أكثر المائيات التي لاقت الحظ الأكبر، والعناية الجمة من الشعراء، وتفننوا في وصفها، واستحسنوا انسيابها بعواطفهم ومشاعرهم، وطربوا بكل أحاسيسهم على خرير مياهها، فألقوا بآلامهم وهمومهم في جوانب فتنتها، المتمثلة بالبساتين الخضراء المنتشرة على جوانبها»[٢] ، فهذا كشاجم يذهب بلبه نهر حلب الشهير المسمى بنهر قويق، وهو نهر صغير، لكنه كثير الانشراح والأنس، فيشده جمال تعرجه، وصفاء مائه الذي يعكس لمعانًا جميلاً، حتى يقول فيه:

والنهر بينَ اعتدالٍ من سَيْرِهِ أَوْ تَأَوُّدْ

(١) الثعالبي؛ أبو منصور، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١/١٢٠، ورواية الديوان: لم أنس دجلة والدجى..

(٢) أبو حاتم؛ نبيل خليل، اتجاهات الأدب في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م، ص: ٢٣٨.

كــأَفْـعُـــوانَ تلــوّى ثمّ استَـــوَى وتَمـــدّدْ
كــأنّ فــيهِ سُـــيوفاً مُــهنَّــدات تُجــــرَّدْ
فتــارةً هـــي تُنْضـــى وتــارةً هــــي تُغْمَدْ[1]

ويذكر القاضي التنوخي جمال نهر معقل وعذوبة مائه وصفائه، ويصف تكسر أمواجه بأعذب الأبيات التي نالت إعجاب الصاحب بن عباد فعدها من أمهات قلائده، يقول فيها:

أحــبب إلي بنهــر معــقلٍ الذي فــيه لقلبي من همومي معقل
عــذبٌ إذا مـــا عـــبّ فيه ناهلٌ فكــأنّه فـــي ريق حـــبّ ينهل
مـــتسلسل وكـــأنّـــه لصـــفائه دمـــع بخـــدّي كاعب يتسلسل
وإذا الرياح جرين فوق متونه فــكأنه درعٌ جلاهـــا صيقل[2]

ونهر معقل بالبصرة ينسب إلى معقل بن يسار، وكان زياد بن أبيه حفره، وأمر معقلاً ففتحه تيمناً بصحبته، فنسب إليه[3]، وفي المثل: "إذا جاء

(١) ديوان كشاجم محمود بن الحسين، دراسة وشرح وتحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة،١٤٠٧هـ-١٩٩٧م، ص: ١٣١-١٣٢.
(٢) الثعالبي؛ يتيمة الدهر، ٢/٣٨٩-٣٩٩.
(٣) جاء في كتاب الإيناس في علم الأنساب، للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي، الذي أعده للنشر الشيخ حمد الجاسر بإشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ، ١٤٠٠هـ، ص٢٦٦ ما نصه: "وكان زياد بن أبيه حَفَرَ نهر مَعْقِل بالبصرة، وأجرى احتفاره على يديْ عبد الرحمان بن أبي ذُكْرَة، أو غيرهُ، فلما فرغ منه وأراد فَتْحه بعث مَعْقَل بن يَسار فَفَتَحَهُ ببركاته، لأنه من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأعطى زياد رجلا ألف درهم، وقال: أبلُغ دجلة وَسَلْ عن صاحب النهر من هو؟ فإن قال لك رجل: نهر زياد فأعطه الألف الدرهم، فبَلَغَ دجلة، ثم رجع فقال: ما لقيت أحداً فبَلَغَ دجلة، ثم رجع فقال: ما لقيت أحداً إلا يَقول: نهر مَعْقِل، فقال زياد: ذلك فَضْلُ الله يُؤتيه من يشاء، وإليه نسب الرُّطب المَعقِلي، لأنَّه أوّل ما ظهر في نخْل هذا النَّهر".

نهر الله بطل نهر معقل"، والمراد بنهر الله ما يقع عند المد، فإنه يطم على الأنهار كلها.

ويضيف السلامي عنصرًا جماليًّا حين يصف انعكاس أشعة الشمس الذهبية على النهر الجاري وقت الغروب بقوله:

ونهرٌ تمرحُ الأمواجُ فيه مراحَ الخيل في رهجِ الغبارِ

إذا اصفرتْ عليه الشمسُ خلنا نميرَ الماءِ يمزج بالعقارِ

كأنَّ الماءَ أرضٌ من لجينٍ مغشاةٌ صفائحَ من نضارِ[1]

لقد شبه تكسر الأمواج على سطح النهر الجاري بالخيل المفعمة مرحًا، فهي تتراكض يمنةً ويسرةً في رهج الغبار، وانعكاس ضوء الشمس الغاربة في الأفق على سطح هذا النهر يستدعي في الذهن صورة عذب الماء الممتزج بصفرة العنب، فكأن الأرض قطعة فضة تكسوها صفائح الذهب النضار.

وللجداول المنسابة بين البساتين، وفي الرياض الزاهرة قدرة على استنطاق قرائح الشعراء واستدعاء المعاني اللطيفة، فهي رافد جم لبيانهم ومنجم للطاقة الفنية والإبداعية لا ينضب، يقول كشاجم:

وترى الجداولَ كالسُّيُو فِ لها سَوَاقٍ كالمبارِدْ

والأرضُ تجلوُها الحدا ئِقُ في مُشَهَّرَةِ المجاسِدْ

ومواكبُ المنْثُورِ صا درَةٌ وجيشُ الورْدِ وارِدْ

وشقائِقُ النُّعْمَانِ تَنْـ شُرُ فوق جيشِهِمَا المَطَارِدْ[2]

---

(١) الثعالبي؛ يتيمة الدهر، ٤٨٢/٢.

(٢) ديوان كشاجم، ص: ١٤١.

إنها لوحة جميلة بديعة، مكوناتها لا تزييف فيهـــا، ولا عيـــب يعتريهـــا، وعناصرها كلها مأخوذة من الطبيعة التي تحتضن الجداول وتحيط بهـــا، مـــن حدائق خضراء معشبة، وورود بأجمل الألوان متفتحة ، مما يشكل منظرًا بديعًا تأنس لرؤيته النفوس وتطمئن لمشاهدته.

ومن الصور الجميلة ما أبدعه بيان الشاعر العباسي أبو ســـعيد الرســـتمي الذي رسم لوحة شعرية رشيقة، حتى قال الثعالبي في شأنها: «ومنها في وصف الماء الجاري، وهو أحسن ما سمعت فيه على كثرته:

هـــــواءٌ كأيام الهوى فـــرط رقةٍ وقـــد فقد العشّاق فيهـــا العواذلا

وماءٍ على الرضراض يجري كأنه صفـــائح تـــبرٍ قد سكـــنّ جداولا

كأنّ بهـــا مـــن شدّة الجري جنّةً فقد ألبستهنّ الرياح سلاســـلا»[1]

إن اهتمام الشعراء العباسيين بالمتنزهات الطبيعية المائية أنهاراً كانت أو جداول أو أودية أو بركًا يدل على عنايتهم بعناصر الجمال، ودقة رصدهم وجمال تصويرهم وحسن وفائهم للمتنزهات التي يجدون فيها أنسهم، وتنشرح لها صدورهم، كما أنه يشير إلى رصيدهم المعرفي الكبير المتأثر بطبيعة الحياة المزدهرة بفنون المعرفة، ويؤكد امتلاكهم الذوق الرفيع، فجاء تعبيرهم عن تلك المتنزهات بأجمل ما يكون التعبير وأحسنه.

٢-الصحراء:

الصحراء هي الأرض المستوية اللينة، وهو اسم يحمل في معناه الاتساع والامتداد، كما أنها مكان لا تكثر فيه الأشجار، فهو واضح مكشوف، ليس فيه معاني المخاتلة والمخادعة أو التورية.

---

(١) الثعالبي؛ يتيمة الدهر، ٣/٢٤٤.

إنها مكان يبعث على التأمل وإطالة التفكر، ويفسح للخيال آمـــاداً رحبـــة، ومجالاً واسعاً لرسم ملامح المساحات المحتجبة عن الأعين، المشبعة بالصمت.

إن سعة الصحراء المترامية الأطراف تمنح الفكر حرية التحليق والتأمل، وتعطي الخيال بعدًا لا حدود له مما يمكن الشاعر من رسم صور بديعة وإبداع معان صافية كصفاء الصحراء.

لقد أدرك الشعراء العباسيون جماليات الصحراء، حيث امتطوا ظهرها في أسفارهم، وجابوا فيافيها في رحلاتهم، وخبروا مجاهلها، وعرفوا مخاطرها، وتعلموا فيها التعامل مع المجهول، فهي المتاهة حقيقة، والمفازة تفاؤلاً، يقول أبو الطيب المتنبي:

يَتَلَوَّنُ الخِرّيتُ مِن خَوفِ التَّوى فيـــها كَـــما تتـــلَوَّنُ الحِـــرباءُ[1]

قال الواحدي: «الخريت: الدليل، سمي خريتا لاهتدائه في الطرق الخفية، كخرت الإبرة، كأنه يعرف كل ثقب في الصحراء، يقول: الدليل الحاذق يتغير لونه من خوف الهلاك كما يتلون الحرباء، وهي دابة تستقبل الشمس، وتدور معها حيث دارت تتلون في اليوم ألواناً»[2]، فالدليل يتكيف على صعوبات الصحراء ويتعايش معها، ويحتملها بكل صعوباتها؛ ليتمكن من العبور والوصول لساحل النجاة، فالعلاقة «بين الكائن والصحراء علاقة متميزة وخاصة، فالصحراء تحفر صفاتها من قسوة وإرادة صلبة وتقشف ساكنيها»[3].

وحين يمتطي الشاعر ناقته لعبور الصحراء، ويرخي لها الزمام، ويطلق لخياله العنان فإنه يبدع في رسم جميل المعاني، ونحت بديع الصور، وضرب

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الإمام الواحدي، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ٢٩٧/١.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الإمام الواحدي، ٢٩٧/١.

(٣) شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص: ٣٤٥.

جديد الأمثال، فيشبه أكوام الرمال بأوراك العذارى، وروابي الصحراء بغوارب الإبل، وذرى الرمال بسحاب يحمل الغيث، ومن ذلك قول الشريف الرضي:

وَالعَــزمُ يَطرَحُني بِكــلِّ مــفَازَةٍ مُتَــشــابِهٍ فــيها رُبىً وَغَوارِبُ

أُعطي الأجيرَ مُرادَهُ مِن صَفحَتي وَتَكــدُّ سَمعي بِالــصَرير جَنادِبُ

إِمّا أقــيمُ صُــدورَ مَجدي بِالقَنا وَيَقــرَّ عَضبي أَو تَقــومُ مَنادِبُ

مُــتــأَنــِّقاً وَذرى الرِمالِ كَأَنَّها دونَ النَواظِرِ عارِضٌ مُتَراكِبُ[1]

إن التعامل مع الصحراء يعطي دروسا في الصبر والجلد، كما يعطي انعكاساً على الخيال سعة واستشرافا، «ويجد نفسه في الصحراء كما يجدها في ربوع الماء والزرع، ووجوده هنا لا يتحقق بسبيل العيش والتجارة، بل في تأكيد الذات إزاء المحيط الواسع المتناهي»[2].

لقد كان المسير في الصحراء يستغرق أيامًا طوالاً، ومع طول السرى يستدعي الذهن طيف الحبيبة ليطرد الملل، ويملأ المكان أنسًا والنفس شوقًا، مما يحمل الشاعر على أن يحسن توصيف المتنزهات الطبيعية وهو في طريقه إلى من يحب، وقد أجاد ناصح الدين الأرجاني في توظيف طيف الحبيبة، وهو يتعامل مع هذه الظاهرة الطبيعية حين قال:

طــَربنَ لترجيــعِ الغناء المُهَــزَّجِ نَواعِجُ حتى جُزْنَ أعــلامَ مَنــْعِجِ

وخُضنْا بها بحراً من الآل طافحــا فعامتْ بنا مثلَ السّــفينِ المُلجَّــجِ

فلمّا طَوتْ كفُّ الدجى سطْرَ أحرفٍ منَ العيسِ في ظهْرٍ من البيدِ مُدْرَجِ

---

(١) ديوان الشريف الرضي، دار بيروت للطباعة والنشر،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ٨٤/١.

(٢) الرواية والمكان، الموسوعة الصغيرة، ياسين النصير، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٨٠م، ١٢٠/٢.

ولاحَتْ نجــومُ اللّيلِ والصُبحُ معمَدٌ كترصــيع دُرٍّ في قــرابِ أرنــْدَج

أَلــمّتْ بنا تجلــو قشــيبَ بهائها أُمــيمةُ في بُــرْدٍ من الليلِ منْهَج[1]

إن الصحراء مع رهبتها وقسوة العيش فيها، وصعوبة نجاة من تاه في مجاهلها أن تفترسه وحوشها الجائعة، أو قطاع الطرق الكامنون للقوافل وعابري السبيل، إن كل ذلك لم يمنع الشعراء العباسيين من استشراف الصحراء، وخوض غمارها، وقطع فيافيها، والتأقلم مع قساوتها ورهبتها، واستجلاء جمالياتها، وكشف حقيقة جوهرها، وتسجيل انطباعاتهم النفسية في صور شعرية بديعة تدل على عمق التجربة والقدرة على سبر أغوار الموضوعات الطبيعية فيها.

٣-الجبال:

«الجَبَل: اسم لكل وَتِدٍ من أَوتاد الأَرض إذا عَظُم وطال من الأَعلام والأَطواد والشَّناخِيب، وأَما ما صغُر وانفرد فهو من القِنان والقُور والأَكَم، والجمع أَجْبُل وأَجْبال وجِبال»[2]، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(النبأ:٦-٧).

إن هذه الظاهرة الطبيعية لها منزلة شامخة في النفوس، فهي مضرب المثل في الرزانة والرسوخ، ومحط أنظار الناس إعجابًا، ومثار ذهولهم واندهاشهم،

---

(١) ديوان الأرجاني، تقديم وضبط وشرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ١٦٨/١، النواعج: النوق السريعة التي يصطاد بها بقر الوحش، ومنعج: موضع، ابن منظور، لسان العرب، مادة نعج، والملجلج: المتقاذف الأمواج، مختار الصحاح، مادة لجج، والأرندج واليرندج: الجلد الأسود، الشعر والشعراء، ص٢٢٥، ومنهج: ممزق، لسان العرب مادة: (نهج).

(٢) ابن منظور، لسان العرب،، مادة (دعا)، وتاج اللغة وصحاح العربية المعروف بـــ "الصحاح" للجوهري.

تبدو لناظرها ثابتة راسية، فهي تنطوي على أسرار عميقة عريقة، فكم مر بأطواد الجبال من مدلج ومؤوب، وكم قال فيها من مطي وراكب؟

إن الجبال تحمل ألغازاً وتثير أسئلة، وتستثير عقول المفكرين في عظمة الخالق العظيم، فهي ملاذ آمن، ومعتصم لمن أراد عاصمًا إلا من أمر الله، يقول الله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾(الحجر:٨٢)، إضافةً إلى معنى الاستقرار والرفاهية، يقول الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾(الشعراء:١٤٩)، فهي بيئة متميزة بالطاقات الجمالية والإيحائية، وثرية بالتمثيل والتخييل.

وإن الشاعر العباسي حين يرصد هذه الظاهرة فإنها تعطيه فرصة استشراف الآفاق من فوقها، ومجالاً رحبًا للرؤية والاستطلاع، وإطلاق البصر والبصيرة، مما يحفز خياله، ويستفز قدراته الإبداعية ليستدعي مخزونه المعرفي في باعث من الأمل و «في قدرة متلقيه تتبع الظلال الهاربة وراء الإيحاءات والإشارات، فالشاعر لا يقول كل شيء، وإن كان يرغب – من أعماقه – أن يقول كل شيء، بيد أن حدود الفن المكانية والزمانية تحول دون ذلك»[(١)]، لقد كانت الجبال موضع اهتمام من الشعراء عمومًا ومن الشعراء العباسيين خصوصا مع اختلاف طرائق تناولهم، ومرد ذلك إلى تباين تجاربهم الوجدانية معها، وتباين مستوى ألفتها في نفوسهم، ومدى الأنس والسرور الذي يجدونه في رحابها، يصف المتنبي رحلة صيد في جبل وعر المسالك في قوله:

وَشَـــامِخٍ مِنَ الجِبـــالِ أَقْـــوَدِ ... فَرِدٍ كَيافوخِ البَعيرِ الأَصيَـــدِ

يُسارُ مِـــن مَضيقِهِ وَالجَلمَـــدِ ... في مِثلِ مَتنِ المَسَـــدِ المُعَقَّدِ

---

(١) فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعية، حبيب مؤنسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م، ص: ٨٢.

زُرناهُ لِلأَمــرِ الَّذي لَم يُعهَــدِ لِلصَيدِ وَالنُزهَةِ وَالتَمَــرُّدِ[1]

قال الواحدي: "الشامخ: العالي، والأقود: المنقاد طولاً، يريد أن هذا الجبل يمتد في الهواء، وفيه اعوجاج، فشبهه بيافوخ البعير الأصيد لعلوه واعوجاجه، والأصيد: البعير الذي في عنقه اعوجاج من دائه، وقوله: يسار: أي يسار من هذا الجبل في طريق ضيق يلتوي عليه كأنه ما بين قوى المسد في التوائه واعوجاجه"[2]، فهذه النزهة اكتنفتها صعوبات متنوعة، فهذا الجبل الشامخ لم يُعهد فيه الصيد لعلوه وارتفاعه، ووعورة مسالكه، وقلة رواده، لكن الذي بدل الوعورة إلى أنسٍ، والمشقة إلى راحةٍ وفرحة هو توفر الصيد فيه، مما حبب المكان للنفوس، فألفته وألفها، وكل مكان يورث الأنس طيب.

ولجبل المقطم الشهير مكانة عند المصريين قد توازي مكانة جبل قاسيون عند الشاميين، فقد كان مكانًا مألوفًا للأدباء حيث لا وعورة ولا مشقة في صعوده، وحيث إطلالته المتميزة على أحياء مصر العامرة، وقد كان للشاعر ظافر الحداد فيه ذكريات عطرة، يقول وهو يستعيد ذكرى تجاربه العاطفية وأيام أنسه ومجالس سعده:

وتَسْــودُ في عينِي البلادُ تذكُّراً لخضرةِ شَطَّيْهِ وبيــضِ قِبابه

وكم لي على سفحِ المقطَّم وَقْفةٌ لها أثــرٌ في وَهــْدِه وهِضابه

فَضَضْنا بها سِلْكَ الحديثِ فخِلْتُه يَميد بنا زَهْــوا لطيبِ عِتابه[3]

فبين الشاعر وجبل المقطم لغة خاصة أفرزتها علاقة حميمة وإلف قــديم، حتى إن الشاعر يشعر بمشاعر السرور والغبطة تملأ أرجاء المكان، مما جعله

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الإمام الواحدي، ١/٤٧٠.

(٢) السابق، ١/٤٧١.

(٣) ديوان ظافر الحداد، تحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٤٨.

يهتز زهوًا، ويرقص طرباً لأنسه بالمناجاة والعتاب في جلسات السمر على سفحه الذي تزينه إطلالته الجميلة وأجواؤه العليلة.

وحين ينظر الأرجاني إلى الجبل الشامخ والثلوج البيضاء تتساقط عليه، يشبهه بالشيخ الوقور الذي علاه الشيب، فيستلهم منه الحكمة، ويتعلم منه الصبر، ويرجع إلى نفسه في محاولة منه لتبديد حيرته، فيدرك القاسم المشترك بينه وبين الجبل، وهي الشيب والوقار، فكلاهما قد جلله البياض، وكسا هامته، وهذا ما وثق العلاقة بينهما، وزاد تقاربهما، فكان الأرجاني يقول معبرًا عن ألفه لهذا المكان وأنسه به:

وغداً تَشيبُ من الجبالِ فروعُها فتَطولُ حَيرةُ أشيبٍ في أشيب

وإذا بكَى للعَجْزِ أصبحَ دَمْعُه في الهُدبِ منهُ كلؤلؤٍ في مِثْقَب[1]

ويذكر الأمير أسامة بن منقذ رحمه الله الجبل الأغر بملطية[2]، الذي طالت إقامته إزاءه، وكان مسقط نظره ومحط رؤيته، فيذكر أيامه الخوالي وأواصر المودة المتينة التي نشأت بينهما، حيث كان الجبل مطلاً على بلاد أهله وأحبابه مبدياً إعجابه بشموخه ورسوخه ورزانته، والكريم يألف ويؤلف، يقول في ذلك:

مَالي وللجبلِ الأغَرّ وإنّما كلّ الهوَى جبلٌ أشمّ بَهيمُ

موفٍ على أرضِ الشّآمِ كأنّما جُونُ السحائب في ذرَاهُ جُثُومُ

---

(١) ديوان الأرجاني، ١/١٣٥.

(٢) «وملَطْيَةُ، بِفَتْحِ الميمِ واللَّامِ وسُكُونِ الطّاءِ مُخَفَّفَة: ابْنُ دُرَيْدٍ من بِلادِ الرُّومِ يُتَاخِمُ الشَّأْمَ منْ بِنَاءِ الإِسْكَنْدَرِ، كَثِيرُ الفَواكِه، شَدِيدُ البَرْدِ، وجامِعُهُ الأَعْظَمُ من بِنَاءِ الصَّحَابَة، والتَّشْدِيدُ لَحْنٌ أَي مع الأَلْسِنَة، ونَسَبَهُ ياقُوتٌ إلى العامَّة، وأَنْشَدَ لِلمُتَنَبِّي:مَلَطْيُةُ أُمٌّ للبَنِينَ ثكُولُ..»، انظر: تاج العروس للزبيدي، مادة (ملط).

ما زال مَطْرَحَ نَاظِرِي حتـــى إذا   لاحَت بفَودِي للــمَشيبِ نُــجــومُ

فَــارقتـُـه ونأيــتُ عنه وما نَأى   وجْــدِي به وهــوَى الكريمِ كريمُ

فــإذا ذكرتُ النّــازِلِينَ بِسَــهْلِه   وبــهم وإن شَطّــت نَــوَايَ أهِيمُ

دارَت بي الأرضُ الفضاءُ كأنّمــا   بِي المُومُ أو لَعِبتْ بِيَ الخُرطُومُ(١)

لقد صنع طول تنزه الشاعر لهذا المكان وكثرة اعتياده له إلفًا لــم تمحــه الأيام، فهو يحن إليه بعد فراق، ويتذكره بعد نأي، ويشعر بحرارة الشوق إليه؛ حتى كأنه مصاب بالحمى أو ثمل بالخمرة.

وقد كان عمر بن الفارض متيماً ببلاد الحجاز، يتغنى بها شوقًا، ويتــشوق إليها حنينًا، فنفسه متعلقة بمشاعرها وبطاحها وجبالها وسهولها، حتــى ظلــت هاجسه الذي لا يفارق خياله، ولا يغيب عن باله، يقول من قصيدة طويلة:

وَجــبِالــُهُ لِيَ مَربَعٌ ورِمالُــهُ   لِيَ مــَرتَعٌ وظِــلالُهُ أَفــيائي

وشِعابُــهُ لِيَ جَــنَّةٌ وقِــبــابُهُ   لِيَ جُنَّةٌ وَعَلى صَفاهُ صَفَائي

حَيَّا الحَيَا تِلكَ المَنازِلَ والرُّبَى   وسَقَى الولَيُّ مَواطِنَ الآلاءِ(٢)

لقد كان لعلاقة الشعراء الدافئة وتجاربهم الكثيرة مع المتنزهات الطبيعة الصامتة، كالجبال دور كبير في إبراز مكانتها، ومدى أهميتها في الحياة، حيث اعتصموا وتحصنوا بها من أعدائهم، وتنسك فيها بعض عبادهم، وأناخ بها المسافرون، وقالوا في ظلها، واهتدى بها السائرون، واقتنص فيها المصطادون، وتغزل فيها العاشقون، وهام بها المحبون.

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١٤٩-١٥٠.

(٢) ديوان ابن الفارض، تقديم كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م، ص: ١٢١.

٤-الرياض:

«الرَّوْضةُ: الأَرض ذات الخُضْرةِ. والرَّوْضةُ: البُسْتانُ الحَسَنُ؛ عن ثعلب. والرَّوْضةُ: الموضِع يجتمع إِليه الماء يَكْثُر نَبْتُه، ولا يقال في موضع الشجر روضة، وقيل: الروضة عُشْب وماء ولا تَكُونُ رَوْضةً إِلا بماء معها أَو إِلى جنبها»[١].

لقد تعددت المتنزهات الطبيعة وتنوعت، وحيث إن الدولة العباسية كانت مترامية الأطراف فقد حوت منها الشيء الكثير، وقد كان للشعراء دور في إبراز متنزهات الطبيعة الجميلة، وقد كانت الرياض موضع الاهتمام والعناية من الشعراء العباسيين؛ لسحرها وأنس النفوس بها، حتى غدت ظاهرة متميزة في شعرهم، «نظموا فيها القصائد الطوال الرائعة والمقطعات الجميلة، وتغنوا بجمالها الساحر، وبمحاسن فتنتها وبديعها، وتفننوا في رسم صور جمالها الفاتنة تفننا يهواه القلب، ويستمتع به البصر، ويستطيبه الذوق»[٢]، ويُعد الشاعر الصنوبري في طليعة قائمة الشعراء الذين عُنوا بهذه الظاهرة الجمالية، واهتموا بها، ويعتبر «أول من تغنى بوصف الروضيات في شعره، حتى ضرب المثل في أوصافه تلك»[٣]، فقد وصف الورد بأشكاله، وذكر أعاجيب أنواعه، ودواعي السرور به، وأسباب ألفة الناس لهذه الظاهرة الجمالية، وعبر عن ذلك بقوله:

أُقحوانٌ وسُوسَنٌ وشقيقٌ وبهارٌ يُجْنَى وآذَريون

وبدا النرجسُ البديعُ كأمثا لِ عيونٍ ترنو إليها عيون[٤]

لقد استطاع المزج بين الألوان الجميلة، وصور لوحة جذابة أنيقة مكونة

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (روض).

(٢) أبوحاتم، نبيل خليل، اتجاهات الأدب في القرن الرابع الهجري، ص: ٢٣٨.

(٣) القيسي؛ نوري حمود، الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص٩٦.

(٤) ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م، ص: ٤٩٥.

من أنواع الورد التي تنجذب إليها النفوس وتسعد بها العيون، وفي لوحة أخرى استطاع الشاعر أن يصف الورد بأقرب المظاهر جمالًا وأكثرها دلالًا وأحبها للنفوس الندية، حين قال:

وردٌ بدا يحكي الخدودَ ونرجسٌ ... يحكي العيونَ إذ رأتْ أحبابَها
والـــزرعُ شِبْهُ عساكرٍ مُصْطَفَّةٍ ... قد فَوّقتْ عن قَســـيِها نُشَّابَـــها
والسروُ تحـــسبه العيونُ غوانياً ... قـــد شمَّرتْ عن سوقِها أثوابَها
وكـــأنَّ إحـــداهنَّ من نفح الصَّبَا ... خـــودٌ تلاعبُ مَـــوْهِـــناً أترابَها
لو كنتُ أملكُ للريـــاض صيانـــةً ... يوماً لما وطئ اللئامُ تُرابَـــها[1]

فالورد يحكي الخدود حمرةً، والنرجس أشبه العيون الناعسة، واصطفى للزرع وصفا أشد حيوية وأكثر بهاءً، فمثله بالعساكر المصطفة، وشبه السرو بالغواني المشمرات لثيابهن اللاهيات مع أترابهن حين يتمايلن لريح الصبا، وإن لهذه المتنزهات النضرة حقًّا على من كان يملك أمرًا أن يحميها من السطاة والعابثين واللصوص، فجاءت الصورة متكاملة جمالا وحياة وقربًا للنفوس.

وللشاعر كشاجم اهتمام واضح بالرياض، فقد تغنى بها، وطرب لمرآها، وفتنته مظاهرها الأخاذة، واستهوت نفسه أنواع الزهور الجميلة، وحركت مشاعر السرور والألفة لديه، يقول:

والأرضُ تُكسَـــى بزهـــر الـــرْ ... رِيَـــاضِ وشْـــيـــاً مُـــعـــمّـــدْ
كـــأنَّ خُـــرّدَ عـــــــــيْـــنٍ ... بـــها يُضـــــاحِـــكْـــنَ خُـــرّدْ
وأبـــيـــــضِ الـــــلّـــوْنِ ضاحٍ ... وحـــالـــكِ الـــلَّـــوْنِ أسْـــــوَدْ
وحُـــمـــْرةٍ مـــن عَـــقـــــيـــقٍ ... وخُضْـــرَةٍ مـــــن زَبَرْجَـــــــدْ

---

(١) ديوان الصنوبري، ص: ٤٥٤.

وأُقْــحُـــوَانٍ كمـــا ارْفَضْـــ ــضَ لُــؤْلـــُـؤٌ وتَـــــبَــــدَّدْ

والـــــنَّرْجِـسُ الغَـــضٌ يَرْنُو إلـــى البــَهَـــارِ المُنَــضّــدْ

كــمـــا أشـــــار مُـــــــحِـــبٌّ إلــــى حبـيــبٍ بمــوعدْ[1]

إنها روضة مزدانة بالورود النضرة، والمنتشرة في أنحاء المكان ما أضاف على الجو بهجة ونشر فيه الروائح الزكية الطيبة، فطاب بطيبها المكان وأنس لها روادها المتنزهون، وابتهجوا بها.

وكلما تنوعت زهور الرياض وتعددت ألوانها كان أدعى لطيب مرآها وزكاء أجوائها، وانجذاب الناس لها، وازداد المكان بهاءً وألقاً، وهذه المتنزهات المليئة بأشكال الزهور والمكتسية بالطل، والتي يضوع شذاها عطراً فواحًا أثرت في نفس الشاعر ظافر الحداد الذي ذكرها كثيرًا في شعره، واصفًا جمالها وفتنتها، وذاكرًا قربها إلى النفوس وألفتها بقوله:

والروضُ ينشُـــر منْ نُـــوّاره حُـــلَلا ممـــا تَحُوك يدُ الأنـــْواءِ والـــسُّحب

والأقحوانـــة تحكى ثـــغـــرَ غانيـــةٍ تَـــبسَّمت فيه من عُجْب ومن عَجَبِ

في القَدِّ والثغرِ والريقِ الشَّهيِّ وطِي ـــب الرِّيحِ واللون والتَّفْليج والشَّنَب[2]

وتجذب نظر الطغرائي شقائقُ النعمان التي كأنها أقداح من ياقوت يـــأرج بالمسك، محاكية خدود الخرد الغيد نضارةً ورقةً؛ لتبدو جميلة في مكان يـــشيع فيه الأنس والألفة، وفيها يقول:

وترى شقـــائقَها خلالَ رِياضِهـــا أوفـــتْ مـــطارِفُهَا على أزهارِها

(١) ديوان كشاجم، ص: ١٣١.

(٢) ديوان ظافر الحداد، ص: ١٩.

وكــأنَّها والــريحُ يصقلُ خَــدَّها والسُّــحْبُ تملؤُها بصَوبِ قَطارِهَا

أقــداحُ ياقــوتٍ لطافٌ أُتْرِعَــتْ راحــاً فباتَ المِسْكُ سُؤرَ قرارِهَا

وكأنَّها وَجَــناتُ غــيدٍ أحــدَقَتْ بخــدُودِها حُمْراً خطوطُ عِذارِها(١)

لكل شاعر قدرة تخييلية يستطيع من خلالها أن يرسم لوحة جمالية تشد أذن السامع وتبهره، وحين يشعر الشاعر بأهمية ما يصف فإنه يكسوه بأنفس ما يخطر ببال، أو يدور في خيال.

وللشاعر الحداد مقطوعة يخال فيها الروضة الجميلة مكسوةً حلل الديباج المزينة بالفصوص النضرة، فزهرها يبدو للناظرين كنزًا من الدر الثمين والذهب الإبريز المتناثر في أرجاء المكان، على ضفاف خليج أمواجه في حراك مستمر، ونبت الروض يتجاوب مع الرياح العابرة تمايلاً، والطير على الغصون في شدو وتطريب، وفي ذلك يقول:

والعيــشُ مخضَرٌّ الجَــنابِ أَنيقــه ولأَوْجُــهِ الــلذاتِ فــيه بُــروز

والروضُ في حُلَل النبــات كأنمــا فُرِشتْ عــليه دَيــابِــجٌ وخُزوز

والماء يبدو في الخلــيجِ كــأنــه إيْــمٌ لسرعِــة سيره مــحــفوز

والزهــرُ يُــوهم نــاظِريه كأنمــا ظَهــرتْ به فوقَ الرياشِ كنــوز

فــأَقــاحُه وَرِقٌ ومَنْثور الــنــدى دُرٌّ ونــوْرُ بَــهارِه إبــريــز

والــروضُ فــيــه تغــازلٌ وتَمايلٌ وتــشــاغُــل وتــراسل ولــغوز

(١) ديوان الطغرائي، تحقيق علي جواد الطاهر و يحيى الجبوري، مشورات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٦م، ص: ١٧٥.

للـــطيرِ فيـــها بالغصونِ تَصارُخٌ وتَصايُحٌ وتـــفَاصحٌ ورمـــوز[1]

إن ظاهرة الرياض تجمع بين جمال الطبيعة الخلابة، والأزهار الجذابـــة، والتطور الحضاري في عصر الدولة العباسية التي تركت أثرًا بالغًا في نفـــوس الشعراء، وهيأت لهم مادة غنية ثرية كانت سببًا أن تجـــود قـــرائحهم بجميـــل الشعر، ورائع النظم الذي كان من السمات الثقافية والفنية البـــارزة فـــي ذلـــك العصر.

٥-الوديان:

«الوادي كل مَفْرَج بين الجبالِ والتِّلال والآكام، سمي بذلك لسَيَلانه، يكون مَسْلَكاً للسيل ومَنْفَذاً»[2]، وهي من المتنزهات الطبيعية الجميلة، المعروفة بطبيعتها الخلابة، وخضرتها الجذابة، ووفرة المياه في بعضها، وقد ألهمت الأودية قرائح الشعراء العباسيين، الذين كانوا ينتجعونها، ويعتادون الخروج لها، ويطيب لهم التنزه في أفيائها، فألفتهم وألفوها؛ حتى تغنوا بفتنتها، وخلدوا ذكرها في أشعارهم، وهذه الأودية منها ما يكون دائم الخضرة، كثير الأشجار، وارف الظلال، ومنها ما يكون موسمياً في اخضراره وطيب نباته، وذلك في فصول الربيع، حيث يغتنم الناس الفرصة للاستجمام والتنزه، والأنس بمظاهر الطبيعة الجميلة.

إن الوديان على اختلاف أنواعها تكون واسعة رحبة الأرجاء، وقد تكون محدودة الاتساع، وهي تعد من مصادر إلهام الشعراء العباسيين، ورافداً من

---

(١) ديوان ظافر الحداد، ص: ١٦٢، الديباج: ضرب من الثياب المنقشة، وخزوز: جمع خز وهو من الثياب المزينة بالجواهر، والإيم: الحية الأبيض اللطيف الذي لايضر أحداً، والبهار: نبت طيب الرائحة، والإبريز: الذهب الخالص، اللسان، مواد: (دبج، خزز، أيم، بهر).

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة (ودي).

روافد الأدب العربي بصورة عامة، وفي شعر شعراء بني العباس وصف للأودية والشعاب يدل على الذوق الرفيع والثقافة العالية، والوعي بمظاهر الجمال، فطبيعة شعب بوّان في شيراز استهوت نفس أبي الطيب المتنبي، وشدّت بصره بجمال متنزهاتها الطبيعية، حيث الأشجار الكثيفة بأغصانها المورقة، والأزهار المتفتحة بروائحها العطرة، وحيث الثمار اليانعة بأنواعها المختلفة، وحيث المياه الجارية العذبة، والنسيم العليل الذي أثار إعجابه وأصحابه، فأنست نفوسهم بتلك المناظر، وانتقل ذلك الإحساس والإعجاب إلى خيولهم، ورغبوا جميعهم بطول الإقامة في ذلك الوادي الجميل، وعبر عن ذلك بقوله:

مَغاني الشَعبِ طيباً في المَغاني ... بِمَنزِلَةِ الرّبيعِ مِنَ الزّمانِ

وَلَكِنَّ الفَتى العَرَبِيَّ فيها ... غَريبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللّسانِ

مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَو سارَ فيها ... سُلَيمانٌ لَسارَ بِتَرجُمانِ(١)

«شعب بوان، وهو موضعٌ كثير الشجر والمياه، يعدّ من جنان الدنيا، كنهر الأبلة وصغد سمرقند وغوطة دمشق، يقول: منازل هذا المكان في المنازل، كالربيع في الأزمنة، يعني أنها تفضل سائر الأمكنة طيباً، كما يفضل الربيع سائر الأزمنة، ويعني بالفتى العربي نفسه يقول: إني بها غريب الوجه لا أُعرف، وغريب اليد؛ لأن سلاحي الرمح، ويدي تستعمل الرمح، وأسلحة أهلها الرايات والمزاريق، فهم يستعملون هذه الأسلحة، وغريب اللسان؛ لأن لغتي العربية، وهم عجم لا يفصحون، ويجوز أن يريد بغربة الوجه أنه أسمر اللون، وغالب ألوان العرب السمرة، وأهل الشِّعب شقر الوجوه، وغريب اليد؛ لأنه يكتب بالعربية، وهم يكتبون بالفارسية، وجعل الشعب لطيبه، وطرب أهله

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الواحدي، ١٠٧٤/٢.

ملاعب، وجعل أهله جِنّةً لشجاعتهم في الحرب، والعرب إذا بالغت في مدح شيء نسبته إلى الجن..وأخبر أن لغتهم بعيدة عن الإفهام، حتى لو أن سليمان أتاهم لاحتاج إلى من يترجم له عن لغتهم، مع علمه باللغات، وفهمه قول الحكل»[١]، ثم ذكر أبو الطيب كيف أن خيولهم تشاركهم مشاعرهم تجاه هذا المتنزه البديع، ولو كان الخيار لها ما ابتغت به بدلاً، ولا عنه حولاً، يقول:

طَبَت فُرسانَنا وَالخَيلَ حَتّى خَشيتُ وَإِن كَرُمنَ مِنَ الحِرانِ[٢]

«يقال: طباه..إذا دعاه..والحران في الدواب أن تقف ولا تبرح المكان»[٣]، فهذه المغاني استمالت قلب المتنبي وأصحابه، وكذلك فعلت في قلوب الخيل التي يمتطونها، ودعتهم للبقاء والمكث الدائم، وذلك لما تميز به هذا الوادي من الطيب والخصب؛ حتى خشوا على خيلهم الحران، وأن لا تبرح هذا المتنزه، لولا أن خيلهم كريمة الأصل لا يعتريها هذا الداء، فالمكان تألفه النفوس البشرية وغير البشرية، وهو مكان ندية أغصانه، كثيفة عيدانه، يقول:

غَدَونا تَنفُضُ الأَغصانُ فيها عَلى أَعرافِها مِثلَ الجُمانِ

فَسِرتُ وَقَد حَجَبنَ الشَّمسَ عَنّي وَجِئنَ مِنَ الضِّياءِ بِما كَفاني

وَأَلقى الشَّرقُ مِنها في ثِيابي دَنانيراً تَفِرُّ مِنَ البَنانِ[٤]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الواحدي، ١٠٧٦/٢-١٠٧٧، وفي اللسان في مادة (حكل)، يقول: «الحُكْلة كالعُجْمة لا يُبين صاحبُها الكلام. والحُكْلة والحَكِيلة: اللُّثْغة، ابن الأعرابي: في لسانه حُكْلة أي عُجْمة لا يُبين الكلام. والحُكْلُ العُجْم من الطيور والبهائم».

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الواحدي، ١٠٧٤/٢.

(٣) السابق، ١٠٧٧/٢.

(٤) السابق، ١٠٧٤/٢، والجمان خرز من فضة يشبه اللآلي.

إذا سار بين أشجار هذا الوادي، فإن ضوء الشمس يتخلل الأغصان، ويقع على أعراف الخيل، وهو مثل الجمان، فكأن الأغصان تنفضه على أعرافها، فهو يسير في ظل هذه الأغصان الكثيفة التي تحجب عنه ما يؤذيه من حر الشمس، وتأذن بما يكفيه من الضوء أن يتسلل إليه، وقد شبه ضوء الشمس الذي ينفذ من خلال الأغصان بالدنانير؛ لتوهجها وبريقها، حين يريد أحد الإمساك بها فإنها تفر من الأصابع، ولا تستقر فيها، ثم ذكر المتنبي ثمار هذا الوادي بقوله:

لَها ثَمَرٌ تُشيرُ إِلَيكَ مِنهُ بِأَشرِبَةٍ وَقَفنَ بِلا أَوانِ

وَأَمواهٌ تَصِلُّ بِها حَصاها صَليلَ الحَلي في أَيدي الغَواني[1]

تميزت ثمار هذا الوادي بأنها رقيقة شفافة القشرة، فكأنها تشير إلى الناظر إليها بأشربةٍ واقفةٍ بذاتها، فأوانيها منها؛ لأن ماءها يُرى من وراء قشرتها؛ لصفائها ونقائها، كما يبين الماء في الزجاج، وهذه الأشجار المثمرة تسقى بماء عذب، له صليل وصوت أثناء جريه، يشبه صوت الحلي الذي تلبسه النساء، من الذهب والفضة والجواهر المختلفة، ثم يذكر طرب الحمام في هذا الوادي الأفيح، وإجابة القيان لغنائها، يقول:

إِذا غَنّى الحَمامُ الوُرقُ فيها أَجابَتهُ أَغانِيُّ القِيانِ

وَمَن بِالشِّعبِ أَحوَجُ مِن حَمامٍ إِذا غَنّى وَناحَ إِلى البَيانِ

وَقَد يَتَقارَبُ الوَصفانِ جِدًّا وَمَوصوفاهُما مُتَباعِدانِ[2]

لقد اجتمع في هذا المتنزه ما تفرق في غيره من الطيبات، فهو يسر الناظرين، ويشبع الجائعين، وماؤه العذب يسقي العطاش، كما أنه يطرب الآذان بأصوات القيان والحمام، فإذا غنت الحمام أجابتها القيان بغنائها المطرب، ثم

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الواحدي، ١٠٧٥/٢.

(٢) السابق، ١٠٧٥/٢.

يشير إلى أن أهل الشعب لا بيان لهم، ولا فصاحة لديهم، فلا يفهم العربي كلامهم، والحمام إذا غنى أطرب، وإذا ناح أشجى، والقاسم المشترك بين الحمام وأهل هذا الشعب هي العجمة، مع أن الموصفين مختلفان جداً، فأهل الشِّعب من البشر، ولكن وصفهم بالاستعجام كما الحمام متقارب، ثم يصغي لحصانه، متخيلاً أنه لو نطق لاستنكر عليه مغادرة هذا الوادي الذي هو من جنان الدنيا:

يَقولُ بِشِعبِ بَوّانٍ حِصاني أَعَن هَذا يُسارُ إِلى الطِّعانِ

أَبوكُم آدَمٌ سَنَّ المَعاصي وَعَلَّمَكُم مُفارَقَةَ الجِنانِ[1]

يتساءل فرس أبي الطيب مستنكراً: أعن هذا المتنزه بدل؟ وهل المطاعنة، والسير إلى الحروب يهدي إليه عقل؟ ثم يحاول فرسُه تفسيرَ سبب مغادرته لهذا الوادي الذي لا نظير له بتعليل ظريف، وهو أنه يبدو أن آدم أبا البشر قد سن لهم سنة الارتحال عن أطايب الأماكن، حين عصى ربه، فأخرج من الجنة، ولذا أنتم تسيرون على سنته.

يقول أبو العباس المبرد في هذا الشِّعب: "كنت مع الحسن بن رجاء بفارس؛ فخرجتُ إلى شِعب بَوّان، فنظرت إلى تُرْبة كأنها الكافور، ورياض كأنها الثوب الموشَّى، وماء ينحدر كأنه سَلاسِلُ الفضة، على حصباء كأنها حَصَى الدرّ؛ فجعلت أطوف في جَنباتها، وأدور في عَرَصاتها، فإذا في بعض جدرانها مكتوب:

إذا أشرفَ المكروب من رَأسِ تَلْعَةٍ على شِعْبِ بوّانٍ أفاق من الكَرْب

وأَلْهاه بَطْنٌ كالحرير لطافَةً ومطَّرِد يَجْرِي من البارِدِ العَذْبِ

وطيبُ رِياض في بلادٍ مَرِيعَةٍ وأغصانُ أشجارٍ جَناها على قُرْبِ

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الواحدي، ١٠٧٥/٢.

يدِير علينا الكاسَ من لو لَحَظْتَهُ　　بعينك ما لُمْتَ المحبين في الحبّ

فبالله يا ريحَ الــشــَّمال تحمّلي　　إلى شِعْب بوّان سلامَ فتًى صَبِّ"[1]

وقد نزل عضد الدولة شعب بوّان، والسلامي معه متوجهاً إلـــى العـــراق، فقال له: قل في الشعب، فقد سمعت ما قال المتنبي، فعاد إلى خيمته، وكتب:

اشرب على الشعب واحلل روضةً أنُفا　　قد زاد في حسنه فازدد به شغَفــا

إذ ألبس الــهيِف من أغصانه حُــللا　　ولقن الــعُجْم مــن أطــيارِه نُتَفا

ونـــمرتْ حُســـنه الأغــصانُ مثمرةً　　مــن نازعٍ قُرُطا أو لابسٍ شنَفــا

والماءُ يــثني على أعــطافــها أزُرا　　والريحُ تعقد من أطرافها شُرَفــا

والــشمسُ تخرق من أشجارها طَرَفا　　بــنُورهــا فــتُرينا تحتها طُرفَــا

من قائلٍ نــســجــت درعا مفضضةً　　أو قائلٍ ذهبتْ أو فضضتْ صُحُفا

ظلت تزُف إلى الــدنيــا مــحاسنها　　وتســتعــيد لها الألطافَ والتحَفا

مــن عارضٍ وكفا أو بارقٍ خــطفا　　أو طائرٍ هــتفا أو سائرٍ وَقَفـــا

ولستُ أُحصي حصى الياقوت فيه ولا　　دُرًّا أصادفه في مائه صـَـدفــَا[2]

إن الرؤى الجمالية تتفاوت من شاعر لآخر، ومن متنزه لآخر، فالجمال الذي يصفه الشاعر ويصوره هو انعكاس لما في ذهنه عن المتنزه الذي طاب له، وتصوير لقدرته البيانيه والذهنية، ولذا كانت عناصر الجمال التي حواها نص أبي الطيب مختلفة عما جاء في وصف السلامي وغيره من الشعراء الذين

---

(١) الحصري القيرواني؛ أبو إسحاق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة الوقفية، ص: ٧١٣.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ٢/٤٨٥-٤٨٦.

وصفوا الأودية، وذكروا النباتات التي تزينها، وتنشر أريج عطرها في أجوائها وأرجائها.

ومن ذلك أبيات للشريف الرضي يصف فيها وادياً فسيحاً، قد انتظمت على ثراه أنواع النباتات البرية من العرار والعظلم والخُزامَى، يقول فيها:

لَكَ اللَهُ مِن وادٍ تَوَرَّكنَ عُـرضَهُ وَنَـقَـبْنَ فيهِ عَن عَرارٍ وَعِـظلِـمِ

يُبارينَ نَـفّاحَ الخُزامى عَشِيَّـةً بِأَطيَـبَ مِن ريحِ الـخُزامى وَأَنـعَمِ

أُغالِبُ دَمعي ثُـمَّ يَغلِـبُ جارِياً وَمَن لَم يُسِل دَمعاً عَلى الحُبِّ يَظلِمِ[1]

إن البيئةَ لها أثر بالغ على الشاعر في اصطفاء ألفاظه، وانتقاء عبارته، وإبداع صوره، والبيئة التي ألفتها نفس الشريف الرضي، وكانت له فيها تجربة بيئة عربية خالصة، يُقرأ ذلك في جو القصيدة العام، وفي المتنزه وعناصره، ويستنطق من خلال ما وظفه من ألفاظ فصيحة، وما صاغه من تراكيب صحيحة، فالعرار والعظلم والخزامى موطنها البيئة الصحراوية العربية، حيث تعبر عن هويتها، وتشكل جزءاً من جمالياتها.

ومن رائع الشعر البديع ورائقه في وصف الأودية قصيدة مُطربة معجبة للشاعر الرقيق أبي نصر أحمد بن يوسف المنازي، وهذه القصيدة نسبت إلى بعض شعراء الأندلس وغيرهم خطأ، يقول منها:

وقـانا لـفحة الـرمضـاء وادٍ سقـاه مضاعف الغيث العميم

نـزلـنا دوحه فحـنا علـيـنا حنـوَّ الوالدات على الفطيم

---

(١) ديوان الشريف الرضي، ٢/٤٠١-٤٠٢، قال ابن منظور في مادة (عرر): العرار، وهو نبت طيب الرائحة، ويعرف بالنرجس البري، وقال في مادة(عظلم): والعظلم، وهو نبات صحراوي تطول مدة اخضراره، وقال في مادة (خزم): والخُزامَى: عُشْبَةٌ طويلة العيدان صغيرة الورق، حمراء الزهرة طيبة الريح، لها نَوْرٌ كنَوْرِ البَنَفْسَجِ.

وأرشــفــنـا علـــــى ظمأٍ زلالاً ألذَّ مــن الــمدامة للــنديم

يــصــدُّ الــشمس أنى واجهتنا فيحجــبهـــا ويأذن للنسيم

يروع حــصاه حالية العــذارى فتلمس جانب العقد النظيم(١)

وفي وداع أحبابه وقف الطغرائي مودعاً الراحلين، واصفاً الأرض التي انطلقوا منها، وهي البطحاء التي تلتقي فيها الأودية والشعاب، وفيها تلعب النسائم العليلة، المشبعة بالندى، الممزوجة بشذى الزهور الفواحة، ونباتاتها العطرة، التي تذكر بروائح الأحبة، يقول:

يا وقــفــةً إثْرَ الأُلَى رحلُــوا حيث التقَى بالأبطحِ الشّــِعْبُ

أرضٌ إذا ولـــعَ الــنسيمُ بها مَــرِضَ الصَّبَا وتماثَلَ الترْبُ

فــترابُها جَــعْـدٌ ونطــفتُهَا عــذبٌ وذيلُ نسيمها رَطْبُ(٢)

إن نفْس هذا الشاعر تفتش عن عناصر الجمال، وتبحث عنه مظانه؛ ولذا أنست نفسه بهذا المتنزه الرحب الفسيح الأرجاء، فعادت إليه نفسه، وثاب إليه عقله، وشعر بالاتزان والهدوء لهذا المكان.

وفي لوحة أخرى يصور الطغرائي متنزهاً اكتست أرضه بالخضرة، وتزينت بالزهور الزاهية، التي زادها رواءً وحسناً الندى وماء المطر، يقول:

عُجْنَا إلى الجِزْعِ الذي مَدَّ فـــي أرجائِه الــغــيمُ بِساطَ الــزَّهَرْ

حولَ غديرٍ مـــاؤهُ المـــنتمــــي إلى بناتِ المُزْنِ يشكو الخَصَرْ

---

(١) ابن حجة الحموي؛ تقي الدين أبوبكر بن علي بن محمد، ثمرات الأوراق، صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٩٧١م، الناشر مكتبة الخانجي بمصر، ص: ٥١. وله فيها قصة ظريفة مع أبي العلاء المعري في نفس الصفحة.

(٢) ديوان الطغرائي، ص: ٥٩.

لو لاذتِ الـريحُ سَـموماً بـه   لانقلبتْ وهـي نَسـيمُ الـسَّحَرْ
حصـبـاؤهُ دُرٌّ ورَضـرَاضُـهُ   سُـحالةُ الـعسجـدِ حولَ الدررْ
وقـد كـَستْهُ الريحُ من نَسْجِها   دِرْعـاً به يـلقى نـبَالَ الـمَطَرْ
وألبَستْهُ الشمسُ مـن ضوئِهـا   نوراً به يَـخْـطَفُ نورَ البَصـَرْ
كـأنـها الـمـرآة مـجلوَّةً   عـلى بِساطٍ أخضرٍ قـد نُشِرْ[1]

هذا المتنزه الخصيب قد فرشت أرضه ببساط من الزهور الجميلة، وحفته غدران مليئة بماء السماء الصافي، والذي يشف ماؤه عن حصباء تتلألأ، كالدرر البيضاء، ومن نظر فيه انعكست له صورته، فهو كالمرآة المجلوة، ومن طيبه لو لاذت به ريح السموم لانقلبت حالها، وقفلت وهي نسيم السَّحر.

الأرض مليئة بالحسن، مفعمة بالجمال، ولكن من يستطيع تصوير ذلك الإبداع الرباني غير بصر الشاعر المبدع، وبصيرته النافذة، وهذا ما نقرؤه في تصوير الأرجاني لمتنزه مليء بالأشجار اليانعة الخضرة، فيجد في نفسه سروراً وأنساً لهذا الجمال الرباني، فيدعو ربه أن يمده بالغيث الهاطل، والمطر الغزير المتواصل؛ حتى ترتوي فجاجه، وتدب الحياة فيما يبس من أغصان أشجاره، يقول:

أأراكةَ الـوادي سقَتْكِ غُيـوثُ   ونَمـاكِ مَوْلىٌّ الـتلاعِ دَمـيثُ
وسَرى إليك معَ الصّباح بسُحْرةٍ   ســارٍ تُـدَرّجهُ أبـاطِحُ ميث
من أيكةٍ مـجْـدودةٍ لـفُروعها   عـن سِـرّ أفواهِ الدُّمَى تَنفيث
لرَطيـبهنَّ عنِ القدودِ حِـكَايةٌ   وليَبْسهنَّ عن الثُّغور حَديث[2]

(١) ديوان الطغرائي، ص: ١٤٠.
(٢) ديوان الأرجاني، ١/ ١٦٠.

لقد بلغت هذه الأراكة التي استبطنت ذلك المتنزه مبلغ الرضا النفسي من الشاعر، حتى استغاث لها ما يديم نماءها، من الماء الهاطل، والسيل الجاري الذي يتدرج بهدوء على البطاح اللينة، ذلك أن هذه الأيكة لها فروع تذكره بأوصاف الأحبة، فأغصانها اللينة أشبهت قدود الحسان، واليابسة لو نطقت لكان لها حديث خاص.

إن الشاعر العربي بطبيعته ألوف، وحين يستقر في مكان تتوثق معه عرى المحبة، ويبادله المودة، ويشعر إليه بالانتماء، ويطلق عليه ألفاظا تعبر عن إحساسه بقيمته، ووفائه لها، فهو يسميه الحِمى؛ لأنه تحت حمايته، فلا يرضى أن تمتد له يد باغية، ولا أن تختطفه يد غاصبة، كما أنه يفتش عن مظاهر الجمال فيه، فيصفها، ويسبغ عليه من بلاغته ما يليق بها، وحين يعرج ماراً بها يتشوق إلى ذكرياته التي بقيت له في متنزهاته، ويرى ذلك من الوفاء الذي يليق للمكان ومن نزله، وحين مر البحتري بوادي الأراك، وأنشد صحبته قائلاً:

ذاكَ وادي الأَراكِ فَاحبِس قَليلاً ... مُقصِراً مِن صَبابَةٍ أَو مُطيلا

قِف مَشوقاً أَو مُسعِداً أَو حَزيناً ... أَو مُعيناً أَو عاذِراً أَو عَذولا

إِنَّ بَينَ الكَثيبِ فَالجَزعِ فَالآ ... رامِ رَبعاً لِآلِ هِندٍ مُحيلا

أَبلَتِ الرِّيحُ وَالرَّوائِحُ وَالأَيّا ... مُ مِنهُ مَعالِماً أَو طُلولا

وَخِلافُ الجَميلِ قَولُكَ لِلذا ... كِرِ عَهدَ الأَحبابِ: صَبراً جَميلا

وَبُكاءُ الدِّيارِ مِمّا يَرُدُّ الشْـ ... ـشَوقَ ذِكراً وَالحُبَّ نِضواً ضَئيلا(1)

إذا مررت بمتنزه وادي الأراك فلا تغادره عجلاً، وإنما تريث لتجيل فيه النظر، وترد فيه البصر، وتستعيد ذكريات من كانوا هنا، وأبد تشوقك، أو

(1) ديوان البحتري، ٣/ ١٧٦٦.

حزنك، أو أسعد مشوقاً أو محزوناً، فبين الكثيب والجزع من الوادي أحلى الذكريات، حيث منازل المحبوبة، التي عصفت بها الريح، وأتى عليها مرور الرائحين، فبليت معالمها، ومحت الأيام رسومها، ولم يبق إلا طلول المتنزه، وإن بكاء الديار يرد الشوق إلى القلوب، ويحيي الحب في النفوس.

٦-الكثبان والروابي:

«الكَثِيبُ من الرمل: القِطْعةُ تَنْقادُ مُحْدَوْدِبةً. وقيل: هو ما اجتَمع واحْدَوْدَبَ، والجمع: أَكْثِبةٌ وكُثُبٌ وكُثْبانٌ، مُشْتَقٌّ من ذلك، وهي تلالُ الرمل»[١]، و«الرَّبْوَةُ.. والرَّابِيَة والرَّباةُ: كلُّ ما ارْتَفَعَ من الأَرض ورَبا..وأَرضٌ مُرْبِية: طَيِّبة»[٢]، والمقصود بهما ما ارتفع من الأرض واستشرف من الأماكن الجميلة، وقد اكتسبت هذه الظاهرة المكانية الجميلة حضوراً في أشعار شعراء العصر العباسي، فما إن تستشرف أبصارهم رحابة المتنزهات، حتى تستوقفها الروابي المرتفعة، والكثبان الرابية، التي برزت على سهل الأرض، وكشفت عن نفسها بسموها، فاجتذبت الأنظار، بما تحويه من الطاقة الجمالية والإيحائية؛ حيث تهيئ للشاعر فرصة التأمل، وإطلاق البصر في جنباتها، وتمده بما ينعش نفسه التواقة إلى مظاهرها الجميلة، وخاصة حين تأخذ زينتها، غب يوم مطير، تخضر بعده أرضها، وتزهر روابيها، وتظل وإن أعقب دهر محتفظةً بمظاهر جمالية ترسم على أديم الأرض شواهد وشواخص ثابتة على مر الأيام، إنها مسرح لمظاهر الجمال من خضرة أخاذة، وزهور جذابة، وقرار ومعين، وقد امتدح ابن نباتة ليل الكثيب وقت هبوب النسائم الندية عليه، والمحملة بأرج الزهور إليه، فتألف النفوس هذا المتنزه الطيب، وتزداد إلفتها له حين تهب تلك النسائم فجراً، فتنشرح الصدور، وتسعد النفوس لتلك النسائم، يقول:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ودي).

(٢) السابق (رب و).

ألا حــبّذا ليلُ الكــثــيبِ وفائحٌ ... مــن الروضِ مهجورُ الفِناءِ خَصيبُ
تنفضُ منظومَ النّدى عن فروعِه ... يــمانـــيــةٌ تــَـنْدى بـــهِ وتَطيبُ
إذا ما نسيمُ الفجــرِ باشرَ نشرَهُ ... تــنــبّـــه مــنه ســـائقٌ وجنيــبُ
متى نشرَ الوسمـــي بردةَ منعجٍ ... وهل زالَ من وادي الأراكِ قَضيبُ(١)

ووصف البحتري مكاناً يعرف بالكثيب جرت فيه معركة بين بعض قبائل العرب، وسفكت فيه الدماء، فبكت العيون حزناً، والفؤاد لج بالخفقان أسفاً، فذلك اليوم شوه صورة الكثبان الجميلة، وهنا كناية جميلة، حيث يحتمل الكلام معنيين مختلفين، وهما الكثبان الحقيقية، أو أعجاز الحسان، إن الحزن الذي آلم القلوب هو الفراق الذي أحدثته حادثات الأيام، يقول:

أَدمــُعٌ قَــد غَرينَ بِالهَمَــلانِ ... وَفُــؤادٌ قَد لَــجَّ فـــي الخَفَقانِ
إِنَّ يَومَ الكَثيبِ أَفقَــدَنا نَضـــ ... ـــرَةَ تِلكَ القُضبانِ وَالكُثبانِ
بِافــتِراقٍ أَلــَمَّ بَعدَ اجــتِماعٍ ... وَتَــنــاءٍ أَقــامَ بَــعدَ تَــدانِ(٢)

ثم يدعو صاحبيه إلى بكاء هذه الأماكن التي كانت غنيةً بأهلها، فأبلاها مرور الأيام، وكر الأعوام، يقول:

ابكــيا هَذِهِ المَغاني الَّتي أَخـــ ... ـــلَقَها بَعــدَ أَهلِها المرزَمانِ
أَسعِدا الغَيثَ إِذ بَكاها وَإِن كا ... نَ خَــلِــيًّا مِن كُلِّ ما تَجِــدانِ
جادَ فــيها بِنَفسِهِ فــاستجدت ... حُــلَلاً مِنهُ جَمّــةَ الأَلــوانِ(٣)

(١) ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م، ص: ٢٥٤.
(٢) ديوان البحتري، ٤/ ٢١٩٧.
(٣) السابق، ٤/ ٢١٩٧.

لقد بكاها الغمام بالغيث، وهو لا يحمل المشاعر التي تحملونها تجاه هذا المتنزه، فلا يكن أولى به منكما، لقد همى عليها مدراراً؛ حتى لبست حللاً كثيرة من ألوان النباتات الزاهية، ثم يقول واصفاً حسن هذا الكثبان المَريعة بقوله:

فـَهيَ تَهتـَزُّ بـَينَ إفرِندهِ الأَخـ ـضَرِ حُسناً ووَشيهِ الأُرجُواني
في سَماءٍ مِن خُضرَةِ الروضِ فيها أَنجُمٌ مِـن شَـقائِـقِ النُعمانِ
واصفـرار مِن لَونِهِ وابـيضاض كَاجـتـماعِ اللُّجَـينِ وَالعِقـيانِ
وَتُـريكَ الأَحبابَ يـَومَ تَلاقٍ بِاعتِنـاقِ الحَوذانِ وَالأُقحُوانِ(١)

يشير إلى جمال هذه اللوحة التي أثمرها الغيث بعد هطوله، فالألوان ممتزجة في شكل أخاذ، من خضرة الروض إلى حمرة شقائق النعمان، واجتماع بياض الماء الفضي مع الزهور الصفراء أشبه في حسنه اجتماع الذهب مع الفضة، وحين ترى تعانق النباتات جراء تحريك الرياح لها، تذكر اعتناق الأحباب يوم التلاقي.

إن هذه المتنزه الفسيح من الأرض، المكسو بأنواع النباتات ذات الألوان المختلفة قطعة نفيسة قد حوت معاني الحسن والجمال، واكتست أزهى الألوان، وتزينت رباها بالياقوت والمرجان، والريح تحمل لها أطيب الطيب من الكافور والزعفران، يقول:

فَكَأَنَّ الأَشجارَ تَعلـو رُباهـا بِـنَـثيرِ الياقوتِ وَالـمرجانِ
وَكَأَنَّ الصَّـبا تـَرَدَّدُ فـيها بِنَسـيمِ الكافورِ وَالزَّعفَرانِ(٢)

---

(١) ديوان البحتري، ٤/ ٢١٩٨، الإفرند: جوهر السيف ووشيه، وقد استعاره لخضرة الأرض، والأرجواني: ذو اللون الأحمر، نسبةً إلى الأرجوان، وهو صبغ يصطبغ به.
(٢) ديوان البحتري، ٤/ ٢١٩٨.

إن من الناس من يألف المتنزهات الفيحاء، الواسعة الشاسعة، ومنهم من تستهويه المتنزهات المغلقة، ولكل شاعر هوى وميل لمظهر من مظاهر الجمال، فمنهم من يميل لوصف الحيوان، ومنهم من يبدع في وصف الإنسان، ومنهم من يجد نفسه في وصف النبات وأماكن الطبيعة، ومنهم من تستهويه الكثبان وما يحيط بها من الأشجار الوارفة الظلال، كظافر الحداد، الذي يتشوق كثيراً في أشعاره إلى مجالس الأنس مع أصحابه في متنزه يجمع أسباب السرور والسعادة، وينتظم دواعي الألفة، من طيب المكان ورحابته، وسحر الطبيعة وجمالها، حيث الخضرة ونور الأقاحي، وكرم الصحاب الأوفياء، يقول:

ليتَ شِعْري والأماني راحــةٌ   للمحبِّ الــنــّازِح الــمُغْــترِب
هل تُغــنِّينا حَماماتُ الحِمَى   في ظِلال الأَيْــكِ بــين الكــثُب
بــغـــناءٍ أعجميٍّ لــفــظُه   يُفْهِم الــسّــمْعَ وإنْ لم يُــعْرِب
يُــطرِب الــسامعَ حــتى إنه   يَــقْــتدى فــيه بمُلْد الــقُضُب
وكأنَّ الــروضَ فــيه غــادةٌ   تَــتهادَى في الــثياب الــقُشُب
والأَقــاحِي كَــلآلٍ نُــظِــمت   في حَواشِي كــوكبٍ من ذَهَــب
وبَــــهارٌ بــاهــر هيــئتــه   مــثل جِرْمِ الشمس عند المغرب
كالــدنانيــر بَــدَتْ ألــوانــه   تُعــدِم الإعدامَ كفَّ الــتَّــرِب(١)

يصف هذا المتنزه بأنه مسرح للحمام المُطرب الذي يفهم السامعين ويطربهم، وإن لم يدركوا معنى حديثه، والروض مفعم بالحيوية والحياة، فنباتاته تتهادى بزهي الثياب القشيبة، والورود تحيط بالمتنزه كلؤلؤ منظوم.

---

(١) ديوان ظافر الحداد، ص: ٤٠، قال ابن منظور، لسان العرب، مادة (بهر)، والبَهار: العَرارُ الذي يقال له عين البقر، وهو بَهارُ البَر، وهو نبت جَعْدٌ له فُقَّاحَةٌ صفراء ينبت أيام الربيع يقال له: العرارة..والبُهارُ: الخُطَّاف الذي يطير تدعوه العامّة عصفور الجنة.

وفي موضع آخر يشيد الشاعر بالكثبان الرملية التي تزينها الزهور البرية، يقول:

وللصَّبا خَلَلَ الأغــصانِ وَسْوَسةٌ كالصَّبِّ للحبِّ يشكوه ويُعْــتِبه

والروضُ يَبْعَثُ مِسْكا من نَوافِجِه والطــَّلُّ يَفْــتُقه والريح تَجْلِبه

وقد تَــبسَّم نَوْرٌ من كَــمائِــمــه فــَلاحَ فِضيُّــه الزاهي ومُذْهَبه

وقد تَبدَّتْ دنانيرُ البَهار على الــ ــكثــبانِ تُطْرِف رائيها وتُعْجِبه

صفــرٌ كناظِــرَتَــيْ ليثٍ تَكنَّفَــه ليلٌ وقد حان من صيدٍ تَوثُّبه[1]

متنزه جمع أسباب الأنس، فالأذن في طرب، حيث وسوسة الأغصان التي تتخللها ريح الصبا الندية، الهامسة كحديث العشاق، والأنف يشم روائح المسك التي تتضوع في أجواء هذا الروض، فتحملها الريح إلى الأنوف، والبصر منبهر لجمال الزهور الأخاذ، بأشكالها المختلفة، والذهن في عجب من البهار الذي تناثر على حنبات الكثبان مشبهاً الدنانير الذهبية في شكله ولونه، بل يشبه عيني الليث المتحفز للصيد في ليل داج.

لقد كانت الروابي متنزهاً للشعراء يعتادونه، ومألفاً لهم يألفونه ويزورونه، ويحنون إليه، ويظمئون إلى عذب مائه، ويتشوقون لعرصاته، ويتذكرون نسيمه العليل، وظله الظليل، حتى شمسه الحارة لها في الفؤاد منزل وموطن، يقول الشريف متشوقاً لتلك الربى:

أَحِــنُّ إلى نورِ الرُّبى في بِطاحِهِ وَأَظــما إلى رَيّــا اللِّوى في هُبوبِهِ

وَذاكَ الحــِمى يَغدو عَليلاً نَسيمُهُ وَيُــمسي صَحيحاً ماؤُهُ في قــَليبِهِ

(١) ديوان ظافر الحداد، ص: ٦٥.

حَبَبتُ لــقَــلبي ظِلَّهُ في هَجيرِه   إذا ما دَجا أَو شَمسَهُ في ضَريبِه[١]

وللسري الرفاء وصف للروابي تميز عن باقي الأوصاف، وذلك حين اكتست الربى التي يعتادها ويألفها بالثلوج، فشبهها بالسراب الذي يعكس الضياء، فهي تتلألأ من بعيد، وتبدو له، وهو يجيل بصره فيها كالخيول الشهباء التي لم تسرج، ولم توضع الأجلة على ظهورها بعد، يقول:

تــلألأتِ الــرُّبى لــمَّا عــلاَهَــا   كأنَّ على الــرُّبـــى أثــوابُ آلِ

تــجــولُ العــينُ فيه وهو فيها   كشُهْبِ الخَيلِ رُحنَ بلا جِلالِ[٢]

لقد كان الشعراء يغتنمون أيام الربيع الجميلة، ليخرجوا إلى المتنزهات المطيرة، حيث تأخذ الأرض زينتها الجميلة، وتلبس الروابي حللها الفاخرة، فيحلو للمتنزهين المرح، ويطيب لهم اللهو والسمر في تلك الأماكن المألوفة لهم، المحبوبة لقلوبهم، يقول الشاعر ظافر الحداد:

وأَمــرَح فـــي مــيادين التَّصابي   وأخــلــع فـــي مَلاعبِها عِذاري

وقد نشر الرَّبيــعُ على الرَّوابـــي   ملابسَ رَقْــمِ أَنْــداءِ الــقِطــار

وقــد بــثَّ النــسيمُ بخــورَ عطرٍ   يُصعــدِّ طِيبه من غير نار[٣]

لقد كسا الربيع هذه الروابي بأنفس الزينة وأجملها، وقد حمل لها النسيم العليل أزكى أنواع العطر، فبخر أرجاءها من دون أن يُوقد لهذا البخور ناراً، فهو يتضوع باستمرار.

---

(١) ديوان الشريف الرضي،١/١٣٢.

(٢) ديوان السري الرفاء، تقديم وشرح كرم البستاني، مراجعة ناهد جعفر، دار صادر بيروت، ٢/٢٥٨.

(٣) ديوان ظافر الحداد، ص: ١٤٤.

ويصور حال الروابي، وهي موشاة بأنواع الزهور، فكأنها قلانس موشاة بالألوان الزاهية، وقد كورت عليها عمائم من قماش الأطلس، وكأن بياض الماء في الجداول التي تحيط بهذه الربا من جنباتها نصل السيف الذي صقلته آلة صقل السيوف المسماة بالمدوس، يقول:

كأن الرُّبى في الزهرِ والماء حولَها قَلانسُ وَشْيٍ حولَهن طَيالِس

كأن بياضَ الماءِ في كل جدولٍ نُصولُ سيوفٍ أَخلصَتْها المدَاوِس

كأن نبات النرجسِ الغضِّ إذ بدا شَراريبُ خضرٌ فوقَهن كَبائسُ

وقد قابلتْ وردا جَنِيا كأنه مَطَارفُ خَزٍّ فيه قانٍ ووارِس(١)

لقد أكثر الشاعر من التشبيه ليقرب الصورة الجميلة للروابي المزهرة، لما يماثلها في بعض الأوجه؛ لتكون عالية الوضوح، وأكثر دنواً من نفس المتلقي، ولإبراز جانبها الجمالي الخفي، فليست الروابي مكاناً للراحة فقط، بما توفره من الظل لمن أضناه المسير، بل إنها متنزه للنفوس الكالة، وبهجة للقلوب المالة؛ لما تحويه من جمال الطبيعة، ووفرة أسباب الإبهاج والإسعاد لمن أضناه الملل، أو أرهقه كدح يومه، فيجد فيها ملاذاً من رهق الحياة، ومستراحاً من جهد العمل، وهو ما يصنع إلفاً، ويوثق مودةً بين الإنسان والمكان.

كم تبهج الروابي النفوس بعد أن يحييها الغيث، فتُنبت نفيس الزهور من الأقحوان والحوذان وشقائق النعمان، فترتسم لوحة ممزوجة الألوان من صنع يد الرحمن جل جلاله، يقول الأرجاني مصوراً روابيَ جادها الغيث، فأنبتت وربت، وآنست وأسعدت:

---

(١) ديوان ظافر الحداد، ص: ١٦٨.

وكأنّما بَعثَ البِحارُ إلــى الرُّبَى   بِــيَــدِ السَّحابِ وَدائعَ الــمَرْجان
وحــكَى أقاحيها سقيطَ دراهــمٍ   وحــكَى دنانــيــراً جنَى الحَوْذان
وشقــائقُ النُّعمان تَحكي بَيْنَها   بكمالِ بَهْــجــتِــها خُــدودَ حِسان
هــيَ للخدودِ النّاعماتِ نَسيبةٌ   شَبَــهاً فلِمْ نُســبَــتْ إلى النُّعْمان
وكأنّ كُــلَّ شَقَــيقةٍ مــكْحولةٍ   شَرِقَتْ مَحاجِــرُها بأحمــرَ قان[1]

إن هذه المتنزهات الجميلة تبادل الشاعر العربي الإلف ويبادلها، فهي تبهج فؤاده، وتطرد همه، وتؤنس قلبه، فيمضي فيها أوقاته مسروراً محبوراً، وينطلق نظره إلى الآفاق الرحبة، وأطلال الأحبة، فترق نفسه، ويجود ذهنه، وينطلق لسانه ببديع البيان، ويرسم صوراً تحكي مدى تأثير المكان في الإنسان، وتأثير الإنسان في المكان.

* *

(١) ديوان الأرجاني، ٢٣٦/٢.

الخاتمة

وبعد: فقد أوضحت هذه الدراسة البحثية أهمية المتنزهات الطبيعية في حاضرة الإسلام زمن العباسيين، إذ إن ذكر المتنزهات في الشعر له دلالة نفسية، وقيمة موضوعية لا يمكن تجاوزها، بل إنه سبب لتحليل أبعاد النص ودوافعه، وتبيين أنه يفيد في تأكيد حالة التجاذب بين النفس والبيئة، حيث يجد الشاعر في المتنزهات أنسه وبهجة نفسه بعيداً من واقع مؤلم وحياة مضنية، وتبيين أثر المتنزهات الطبيعية في وجدان ومشاعر الشاعر العباسي، مع عرض نماذج تطبيقية من شعر شعراء العصر العباسي.

وأوضحت هذه الدراسة مفهوم التنزه ودلالته اللغوية، وأن أفضل النزهة وجه سماء، وصفوة هواء، وغدير ماء، وخضرة كلاء، وسعة فضاء، فالمتنزهات: هي كل مكان يشعرنا بالدفء والأنس؛ حتى نألفه ونرتبط به، ويترك بصماته الواضحة على ذواتنا، بحيث لا يمكن أن تمحى تلك البصمات؛ لشدة رسوخها، وتمكنها في أذهاننا وهي أيضاً الموضع الذي تأنسه النفوس، وتركن إليه، وتجد راحتها ورضاها في رباه، وتجد فيه الجمال، فبقدر تأثير المتنزهات في وجدان الشاعر يكون ذكره لمظاهرها الطبيعية، ووصفه لمغانيها وجمالياتها، وهو انعكاس لتأثيرها في وجدانه الذي يتأثر بمظاهر الطبيعة تأثراً عفوياً، مع تقديم نماذج شعرية شاهدة من شعر شعراء العصر العباسي، وقد شمل البحث ذكر أهم عناصر المتنزهات الطبيعة: المناظر المائية الجميلة، والصحراء، والجبال، والرياض، والوديان، والكثبان والروابي.

إن تناول مثل هذه الموضوعات القيمة " **المتنزهات الطبيعية في الشعر العباسي**" بالدراسة تعظم أهميته حين يؤدي غرضاً شريفاً، ويحقق هدفاً سامياً، من إفهام عيي، أو تنبيه غافل، أو تأكيد معنى، أو كشف غموض، أو إبلاغ رسالة؛ لذا فإن تناول مثل هذه الموضوعات بالدراسة مما يخدم الأدب العربي

ويرتقي به، ويكشف جماله وجلاله؛ لذا يوصي الباحث الدارسين بتقديم دراسات مماثلة، فتاريخ الأمة مليء بالدرر والجواهر الأدبية في مختلف العصور الشعرية، وهي بحاجة ماسة إلى من يُعمل فيها عقله وقلمه ويقدمها لقراء العربية وغيرها، ويملأ الفراغ بعمل مستحق.

* *

المصادر والمراجع

١- البصائر والذخائر، التوحيدي، أبوحيان علي بن محمد، تحقيق د.وداد القاضي، ط:١، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢-اتجاهات الأدب في القرن الرابع الهجري، نبيل خليل أبو حاتم، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م.

٣-الإيناس في علم الأنساب، للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي، الذي أعده للنشر الشيخ حمد الجاسر بإشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ، ١٤٠٠هـ.

٤-ثمرات الأوراق ابن حجة الحموي، صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٩٧١م، الناشر مكتبة الخانجي بمصر.

٥-ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العلامة الإمام الواحدي، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٦-ديوان الأرجاني، تقديم وضبط وشرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٧-ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٨-ديوان ابن الفارض، تقديم كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.

٩-ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م.

١٠- ديوان البحتري، عناية كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

١١- ديوان السري الرفاء، تقديم وشرح كرم البستاني، مراجعة ناهد جعفر، دار صادر بيروت، ٢٥٨/٢.

١٢- ديوان الشريف الرضي، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٣- ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م.

١٤- ديوان الطغرائي، تحقيق علي جواد الطاهر و يحيى الجبوري، مشورات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٦م.

١٥- ديوان ظافر الحداد، تحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٦- ديوان كشاجم محمود بن الحسين، دراسة وشرح وتحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة،١٤٠٧هـ-١٩٩٧م.

١٧- الرواية والمكان، الموسوعة الصغيرة، ياسين النصير، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

١٨- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة الوقفية.

١٩- شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ٢٠٠٠م

٢٠- فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعية، حبيب مؤنسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١م.

٢١- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٢٢- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الرويفعى الإفريقى، ط:١، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦م.

٢٣- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

* * *